الأصول العلمية والإيمانية
لفهم كتاب الله - عز وجل -

إعداد
د. عيسى بن ناصر الدريبي

د. عيسى بن ناصر الدريبي

- أستاذ مشارك بكلية المعلمين بجامعة الملك سعود.
- عضو مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه (تبيان).
- حصل على درجة الماجستير من قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بأطروحته (منهج السمين الحلبي في التفسير في كتابه الدر المصون في علوم الكتاب المكنون).
- حصل على درجة الدكتوراه من قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (فتح المنان بتفسير القرآن للحسن عاكش الضمدي من أول الكتاب إلى نهاية تفسير سورة المائدة - دراسة وتحقيق).

ملخص البحث

سيعالج هذا البحث مسألة المنهجية العلمية لتفسير كلام الله من خلال الحديث عن الأصول العلمية والإيمانية لفهم لكلام الله من خلال :

تتبّع أهم أصول فهم النص القرآني في ضوء محددات :

١ – ظروف نزول النص من العلم بأسباب النزول وأماكن النزول وأثرهما في التفسير

٢ –فهم لغة النص، وهواللسان الذي نزل به القران من علم غريب القرآن، وأساليب القرآن في المخاطبات ،وعاداته ،وكليات الألفاظ ، ودلالاتها.

٣ –المنطلقات الفكرية والعقدية وأثرها في توجيه التفسير نحو الوجهة السليمة.

وسأعتمد في كثير من الأمثلة تفسير السلف لأنهم النموذج الأمثل في تطبيقات المحددات السابقة

وينبغي بل يجب أن نجعل من تفسيرهم محددات علمية للشروط العلمية والضوابط المنهجية للتفسير، فقد توافر لهم ما لم يتوافر لغيرهم من الإحاطة باللغة ،والفهم السليم، ففهمهم للقرآن يؤيده:

١ – فهم اللغة

٢ –إحاطتهم بظروف نزول القران مكاناً وزماناً .

٣ – سلامتهم من الانحرافات العقدية والفكرية،وتعظيمهم للقرآن .

مما جعلهم تراثهم التفسيري النموذج الأمثل الذي نستقي منه الأصول العلمية المنهجية ،والأسس الإيمانية والعقدية لتفسير القرآن.

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد:

فان علم التفسير علم شريف القدر؛ لارتباطه بكلام الله –عزوجل– ولقد تسابق علماء هذه الأمة منذ العهد المبارك –عهد رسول الله ﷺ – من الصحابة الكرام وتابعيهم إلى هذا الشرف ، ففسروا القرآن معتمدين على أصول علمية ومنهجية منضبطة في التعامل مع كتاب الله ، مع تهيبهم من الإقدام على هذا الأمر تعظيما لكتاب الله أن يقال فيه فيخطئ .

وقد تركوا تراثا علميا له قيمة عالية ،من حيث المعاني والدلالات ، ومن حيث المنهج.

ونحن بحاجة ماسّة إلى تتبع هذا المنهج في التعاطي مع التفسير ، وخاصة في ظل أمرين هامين هما :

أولهما :ضعف المنهجية العلمية ممن يقدم على هذا الأمر .

وثانيهما : وجود مناهج تفسيرية منحرفة –إما بجهل ،أو بضلال عن علم – للطعن في شريعة الله وتعطيل حدوده وشرائعه تحت عدة دعاوى مضللة ،من مثل القراءات الحديثة للنص القرآني التي نرى في بعض أطروحاتها عزل النص القرآني عن قائله ،فيتعامل معه على أنه نص تاريخي –كما يقولون– ، أو عزلهم فهم النص عن وقت ظروفه المساعدة على فهمه، أو الادعاء بأن بعض الأحكام كانت لمعالجة وضع معين في زمن معين فيبقى هذا النص في حدود تلك الحقبة ،ولايعمم على وضعنا الحالي ..الخ ماتتفوه به ألسنة ،وماتسطره أقلام تهدم وتفسد ،وتتجرأ على قدسية القرآن.

من هنا كان لزاماً على أهل العلم الشرعي –عموما–،والمعنيين بالدراسات القرآنية –خصوصا– تولّي زمام المبادرة لحماية جناب كلام الله من تحريف المحرفين وباطل المبطلين.

ومن أهم سبل ذلك: بيان الجادّة لمن يتولى هذا العلم الشريف ،ووضع المنهجية العلمية السليمة لأصول التفسير،وأعلى نموذج علمي متميز هو نموذج تفسير السلف بما يوافر لديهم من الأصول العلمية والمنهجية ، والقواعد الإيمانية وسلامة العقيدة والفكر من الانحرافات الفكرية، وخلوصهم من الأهواء التي نشأت بعدهم فأثّرت في مناهج التفسير.

وأحببت أن أضع لبنة في هذا الطريق، باستقراء شيء من تفاسيرهم للخروج بهذه الرؤية ،وهي خطوة على بداية هذا الطريق ،تحتاج إلى تتبّع أوسع ، وبسط أكثر ،ولكني أردتها بدايات لمشروع أوسع مما جعلني أكتفي بهذه البداية .

وقد رسمت خطة البحث المنهجية التي أردت منها وضع الأطر العامة لهذا الموضوع ،واختصرت في التأصيل والتمثيل ليكون هذا البحث بمثابة القواعد الرئيسة لهذا الموضوع ،فأصبحت الخطة مكونة من ثلاثة مباحث ،وخاتمة، كالتالي :

خطة البحث:

المبحث الأول: فهم ظروف نزول النص،وهو يدور حول السياق الزمني وأثره في فهم النص. وفيه أصلان هما :

الأصل الأول: العلم بأسباب النزول وأثره في فهم المنزل.

الأصل الثاني : العلم بمكان النزول وأثره في فهم النص القرآني.

المبحث الثاني :ويدور حول فهم لغة النص ، السياق اللغوي وأثره في فهم القران:

وفيه ثلاثة أصول :

الأصل الأول :مفردات اللغة العربية(غريب القران).

الأصل الثاني :كليات القران

الأصل الثالث :دلالات الألفاظ (المطلق والمقيد ،العام والخاص ،المنطوق والمفهوم..)

المبحث الثالث : الأساس العقدي والإيماني ،ويدور حول المنطلقات الفكرية للمفسر، أوالخلفية الفكرية للمفسر وأثرها في التفسير،وهو يعتمد على أصلين هما:

١- صحة العقيدة ونقاؤها.والخلوص من الأهواء.

٢- تقديس كلام الله وتعظيمه (التهيب من الإقدام على التفسير)

المبحث الرابع : الأصول المنهجية في التفسير:

وهذه المنهجية تعتمد على أصول أهمها:

١- الالتزام بالحقيقة في التفسير

٢- الالتزام بالظاهر في التفسير.

٣-السياق القرآني وأثره في التفسير

المبحث الأول:
فهم ظروف نزول النص
وهو يدور حول السياق الزمني وأثره في فهم النص.

السياق الزمني من السياقات المؤثرة في فهم النص بشكل لا يقبل الجدل ،لأن القرآن لا يمكن فهمه بدون ظروف نزوله ، وقد نزل القرآن مفرقا في ثلاث وعشرين سنة ،اختلفت مواضيعه حسب مراحل نزوله في المرحلة المكية عن المرحلة المدنية، إضافة إلى أن بعض آياته نزلت بسبب ما ، وبعض الآيات نزلت في ظروف ولعلاج بعض عادات العرب الفاسدة ، وكل هذه الأمور تؤكد أن من أهم أصول تفسير القرآن معرفة كل ذلك .

وفهم ظروف نزول النص وأثره في التفسير ، سنبينه من خلال الحديث عن أصلين هاميّن ، مدعّما ذلك بالأمثلة:

الأصل الأول: العلم بأسباب النزول وأثره في فهم المنزل.

من المتفق عليه بين علماء التفسير أهمية العلم بأسباب النزول من حيث تأثيره في فهم القرآن ؛لأنه كما يشتهر أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، وقد أكد المفسرون على ذلك فقال الواحدي :" إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ماتصرف العناية إليه،لامتناع تفسير الآية، وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها" [(١)].

ويؤكد الإمام ابن دقيق العيد ذلك بقوله:"بيان سبب النزول طريق

(١) الواحدي ، أبوالحسن ،أسباب النزول ص(٤)

قوي في فهم القرآن" (١).

وقد كان لتوفر معرفة سبب النزول لسلف هذه الأمة وعلى رأسها صحابة رسول الله الأثر الكبير في فهم القران وإزالة الإشكالات في عدم فهمه على الوجه الصحيح ،ولذا عدّه ابن عباس سببا رئيسا في اختلاف الأمة في فهم القرآن ، فقال حينما رأى عمرا –رضي الله عنه –،وقد خلا بنفسه وهو يحدثها بقوله: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟!

فقال ابن عباس :"يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه،وعلمنا فيم نزل ؟ وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ،ولا يدرون فيم نزل ..."(٢)

فهاهو ابن عباس حبر الأمة وبحرها يجعل جهل سبب نزولات القرآن من أهم أسباب الانحراف في فهم نصوص القرآن ،

ولذا فان النظر للقرآن كنصٍّ مجرّد من ظروف نزوله مؤذن بانحراف التفسير ، فالقرآن له عدة مكونات مهمة تسهم في فهمه الفهم الصحيح. ومن أعظم ذلك معرفة أسباب النزول ، وأمثلة ذلك كثيرة.

ومنها :تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾(٣)، فان هذه الآية يصعب فهمها من غير معرفة سبب نزولها.

(١) نقله السيوطي في الإتقان(١/ ٨٤)

(٢) ذكره الامام الشاطبي في الموافقات (٣/ ٢٥٩)

(٣) البقرة: ١٨٩.

ومعرفة سبب النزول يفكّ الغموض عن هذه الآية ،فما علاقة دخول البيوت من أبوابها أو من ظهورها بالتقوى ؟ ولكن سبب النزول يكشف لنا ذلك ، فقد روى لنا البراء بن عازب –رضي الله عنه– أن الأنصار إذا حجوا فرجعوا لم يدخلوا البيوت إلا من ظهورها .قال :فجاء رجل من الأنصار فدخل من بابه ،فقيل له ذلك ، فنزلت هذه الآية ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [1].

وسبب النزول يصحّح الفهم المغلوط الذي قد يفهم حينما لا يعرف المفسّر أو النّاظر في الآية سبب النزول ،

ومثال ذلك: ما حصل لقدامة بن مظعون حينما فهم أن قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [2]، يرفع عنه الجلد لو شرب الخمر.

فقد روي أن الجارود قدم على عمر –رضي الله عنه – فقال : إن قدامة شرب فسكر، فقال عمر: من يشهد على ما تقول ؟ قال الجارود :أبو هريرة يشهد على ما أقول، وذكر الحديث، فقال عمر: يا قدامة إني جالدك، قال: والله لو شربت كما يقولون ماكان لك أن تجلدني،فقال عمر :ولم؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب الحج ،باب قوله تعالى :وليس البر بأن تأتوا البيوت (٢/ ٦٣٩) برقم (١٧٠٩)،وأخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب التفسير برقم (٣٠٢٦)

(٢) المائدة: ٩٣.

لأن الله يقول: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ ﴾ .

فقال عمر :إنك أخطأت التأويل يا قدامة ،إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرّم الله، وفي رواية:لم تجلدني؟بيني وبينك كتاب الله.فقال عمر: وأيّ كتاب الله تجد أني لا أجلدك؟ قال :إن الله يقول في كتابه ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ... الآية ،فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا،شهدت مع رسول الله بدرا وأحدا،والخندق والمشاهد، فقال عمر: ألا تردّون عليه قوله؟ فقال ابن عباس:إن هؤلاء الآيات أنزلن عذرا للماضين ،وحجة للباقين،فعذر الماضين بأنهم لقوا الله قبل إن تحرّم عليهم الخمر، وحجة على الباقين لأن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [(١)]، ثم قرأ آخر الآية الأخرى، فان كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات،ثم اتقوا وآمنوا،ثم اتقوا وآمنوا،ثم اتقوا وأحسنوا فان الله قد نهى أن يشرب الخمر، قال عمر :صدقت) [(٢)].

إذا لا يمكن عزل النصّ القرآني عن ظروف نزوله ،وأسبابها ،ومن يتجرّأ على ذلك أو يجهله فسوف يقوم مقاما خطيرا في تفسير كتاب الله كما حصل لقدامة بن مظعون حينما غاب عنه سبب نزول هذه الآية.

(١) المائدة: ٩٠.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى ،كتاب حدّالخمر (٣/ ٢٥٢)برقم ٥٢٨٨،والدار قطني (٣/ ١٦٦) برقم ٢٤٥،والحاكم في مستدركه (٤ / ٣٧٥-٣٧٦)

وفي هذا المثال يقعّد ابن عباس تطبيقيا لأهمية العلم بأسباب النـزول في فهم القران.

- **بل إن الاعتماد على اللغة وتجاهل أسباب النـزول قد يجعل المفسر يحمل الآية على غير معناها.**

ومثال ذلك :ما جاء عند تفسير تثبيت الأقدام في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[1].

قال أبو عبيدة:" مجازه : يفرغ عليهم الصبر ،وينزله عليهم ،فيثبتون لعدوهم "[2].

وعند التأمل في قصة نزول الآية نعلم أن المعنى اللغوي الذي ذكره غير مراد ، وقد خطّأ ابن جرير هذا التفسير، وبيّن أنه مخالف لقول الصحابة والتابعين المستند على قصة نزول الآية، وأن المعنى الصحيح هو المعنى الذي يدل عليه قصة النزول [3].

وهو: أن الله يثبت أقدامهم التي يمشون بها على الرمل كي لا تسوخ فيه ، كما وردت بذلك الرواية عن ابن عباس حيث يقول : وذلك أن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير ويقاتلوا عنها ،نزلوا على الماء يوم بدر ،فغلبوا المؤمنين عليه فأصاب المؤمنين الظمأ ، فجعلوا يصلّون

(١) الأنفال: ١١.

(٢) المثنى، أبو عبيدة معمر (مجاز القرآن ١ / ٢٤٢)

(٣) الطبري ، أبوجعفر محمد بن جرير (جامع البيان ١١/ ٨٦)

مجنبين ومحدثين ،حتى تعاظم ذلك في صدور أصحاب رسول الله ، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي ،فشرب المسلمون ،وملأوا الأسقية ، وسقوا الركاب ، واغتسلوا من الجنابة ،فجعل الله في ذلك طهورا ،وثبّت الأقدام وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله عليها مطرا، فضربها حتى اشتدت ،وثبتت عليها الأقدام "

الأصل الثاني : العلم بمكان النزول وأثره في فهم النص القرآني.

المقصود بهذا الأصل : معرفة المكي والمدني .

فما هو المكي والمدني ؟ علم المكي والمدني علم يتتبع أماكن نزول القرآن ،ويحدد هوية السور والآيات من حيث هل هي نزلت في المرحلة المكية أو المدنية؟.

وقد اختلفت وجهات نظر العلماء في تعريف هذا العلم ،حسب ثلاثة اعتبارات، فمنهم من اعتبر زمن النزول ،ومنهم من اعتبر المخاطب ،ومنهم من اعتبر مكان النزول، وليس هذا مكان تفصيل مناقشة الردود ، ولكننا نأخذ القول الراجح في ضابط المكي والمدني، وهو اعتبار زمن النزول ،لأنه حاصر وضابط ومطّرد.

يقول ابن عطية : " وكل ما نزل من القرآن بعد هجرة النبي فهو مدني، سواء نزل بالمدينة، أو في سفر من الأسفار،أو بمكة ، وإنما يرسم بالمكي ما نزل قبل الهجرة " [١].

---

(١) ابن عطية (المحرر الوجيز ٥ / ٥)

وهو أشهر الأقوال ،كما ذكر الزركشي والسيوطي [(١)].

لقد أبدى صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم –اهتماما بالغا بتتبع أماكن نزول القرآن ،لما لمعرفة مرحلة نزول السورة أو الآية من أثر في فهمها ، وفي موضوع التعامل مع الآيات الواردة في موضوع واحد والحكم مختلف عن طريق النسخ عند عدم إمكانية الجمع.

يقول ابن مسعود:"والله الذي لا إله إلا هو ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، وما أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه " [(٢)].

وفي ذلك يقول مكي بن أبي طالب :"ويجب أن تعلم المكي من السور والمدني ،فذلك مما يقوي ويفهم معرفة الناسخ والمنسوخ " [(٣)].

ويقول أبو جعفر النحاس: "وإنما يذكر ما نزل بمكة و بالمدينة، لأن فيه أعظم الفائدة في الناسخ والمنسوخ،لأن الآية إذ كانت مكية وفيها حكم،وكان في غيرها مما نزل بالمدينة حكم غيره،علم أن المدنية نسخت المكية "[(٤)].

وفي نفس السياق يقول الإمام القرطبي : "وينبغي له أن يعرف

---

(١) الزركشي ،(البرهان:١ / ١٨٨،) والسيوطي (الاتقان ١ / ٢٦) وقد رجح ذلك كثير من العلماء

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي (٤ / ١٩١٢) برقم ٤٧١٦

(٣) القيسي، مكي ابن أبي طالب (الناسخ والمنسوخ ١١٣-١١٤)

(٤) النحاس ، (الناسخ والمنسوخ (٢ / ٦١١)

المكي من المدني ،ليفرق بين ماخاطب الله به عباده في أول الإسلام ،وما ندبهم إليه في آخره وما فرض في أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القران " [١].

ومعرفة المكي والمدني له أثره في فهم معنى الآية ومدلالوتها

فهذا سعيد بن جبير يعتمد على موضوع المكي والمدني في تصحيح فهم آية في بيان المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [٢]، فقد أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن أبي بشر قال :قلت لسعيدبن جبير ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أهو عبدالله بن سلام؟ قال : "هذه السورة مكية ،فكيف يكون عبدالله بن سلام ؟! قال :وكان يقرؤها(ومِن عِندِه علم الكتاب) يقول: مِن عندِ الله ." [٣].

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [٤]، يرفض القرطبي تفسيرها بماذكر في سورة المائدة اعتمادا على أن هذه الآية مكية ، فيقول :" قيل : ﴿فَصَّلَ﴾ ،أي: بيّن ،وهو ما ذكره في سورة المائدة من قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [٥]، قلت –القائل القرطبي -:هذا فيه نظر ،فإن "الأنعام مكية و"المائدة" مدنية ، فكيف يحيل بالبيان على مالم ينزل

(١) القرطبي ، تفسير القرطبي (١ / ٢١)

(٢) الرعد: ٤٣.

(٣) الطبري، محمد بن جرير (جامع البيان ١٣ / ٥٨٦)

(٤) الأنعام: ١١٩.

(٥) المائدة: ٣.

بعد؟"[1].

ومن هنا نؤكد أن من يتجاهل أو يتعمد فصل النصّ القرآني عن ظروف نزوله ويتعامل معه كنصّ مجرد سوف ينقطع دون فهم بعض الآيات، وسيقع في جملة من الأخطاء الخطيرة.

معرفتهم بعادات العرب وأحوالهم :

يعد هذا السياق الزمني التاريخي من الأصول المؤثرة في فهم القرآن ، ومعرفة ذلك يكشف اللثام عن بعض الآيات ، ومن أمثلة ذلك : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾[2]، فهذه الآية لا يمكن فهمها هذه دون معرفة عادة العرب التي تحدثت عنه الآية

فقد كانت قريش تقول : نحن الحُمس أهل الحرم ولانخلف الحرم، ونفيض من مزدلفة ، فأمروا أن يبلغوا عرفة ،جاء هذا عن مجاهد،وقتادة، والسّدي، وغيرهم[3] ، فهذه الآية يحتاج فهمها إلى فهم عادات العرب في الحجّ، وجهل هذا لايمكن معه فهم (من حيث أفاض الناس) ما المقصود بالناس هنا، وما المقصود بالحيثية؟

(١) القرطبي ، تفسير القرطبي (٧ / ٧٣)

(٢) البقرة: ١٩٩.

(٣) الطبري، محمد بن جرير (جامع البيان ٤ / ١٨٧)

المبحث الثاني :

وهو الأصل الذي يدور **حول فهم لغة النص ،السياق اللغوي وأثـره في فهم القران: وفيه ثلاثة أصول:**

١ – مفردات اللغة العربية(غريب القران)

٢ –كليات القران.

٣ –دلالات الألفـاظ (المطلـق والمقيـد ،العـام والخـاص ،المنطـوق والمفهوم..)

نـزل القـرآن الكـريم بلغـة العـرب ،فكـان العـرب يفهمـون مفرداتـه ويعلمون تفسيرغريبها ،ويدركون معانيها ، ويتـذوقون الأسـلوب القـرآني البليغ .

ولقد كان صحابة رسول الله عربا أقحاحا يفهمـون غالـب القـرآن؛ لأنه نزل بلغتهم ،وكانوا يستشهدون بالشعر العربي لبيـان غريـب القـرآن، ويدركون أساليب القرآن في التعبير؛ لأنـه نـزل عـلى أسـاليبهم ، ويعرفـون كلياته وعاداته.

وسوف أتحدث هنا عن ثلاثة أصول تعدّ أهم أصول السياق اللغـوي ،مع أهمية أصول أخر كأساليب الخطـاب ،وعـادات القـرآن، ولكـن ضـيق مساحة البحث حالت دون الحديث عن ذلك.

الأصل الأول :مفردات اللغة (غريب القرآن).

المراد به: العلم المختص بتفسير الألفاظ الغامضة في القرآن الكريم، وتوضيح معانيها بما جاء في لغة العرب وكلامهم. [1].

إدراك هذا الأمر من أهم ما يبدأ به المفسّر،وكذا كان المفسرون من السلف وعلى رأسهم صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والتابعون من بعدهم، يقول الإمام الشاطبي : "وما نقل من فهم السلف الصالح في القرآن ،فإنه كله جار على ما تقضي به العربية ، وما تدل عليه الأدلة الشرعية" [2].

فهذا ابن عباس قد بيّن جملة من غريب القرآن ،واستشهد على ذلك بالشعر العربي وذلك في مسائله المشهورة مع نافع بن الأزرق .

ويؤكد على أهمية ذلك الإمام مالك فيقول :"لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغات العرب إلا جعلته نكالا"[3]

وفي ذلك يقول الراغب الأصفهاني :"وذكرت أن أول ما يحتاج إليه أن يشتغل به – من علوم القرآن – العلوم اللفظية ،ومن العلوم اللفظية :تحقيق الألفاظ المفردة ،فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه كتحصيل اللّبن في بناء ما يريد أن يبنيه..."[4].

(١) المرعشلي ،يوسف (من مقدمته في تحقيقه لكتاب العمدة في غريب القرآن لمكي ص ١٤)
(٢) الشاطبي ، أبواسحاق (الموافقات ٣/ ٤٠٤)
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥ / ٢٣٢)
(٤) الأصفهاني ، الراغب (ص ٥٤)

قال الشاطبي : "فمن أراد تفهّم القرآن ،فمن جهة لسان العرب يفهم، ولاسبيل إلى تطلّب تفهمه من غير هذه الجهة " (١).

ولذا فإن تفسير كلام الله الذي لايؤخذ من دلالة ألفاظ الآية فهو رد على قائله (٢) .

وهذا الأمر متقرّر عند سلف الأمة ،فهاهو ابن عباس يرى أن وضع كلام الله في غير موضعه من الإلحاد .

فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ (٣) : الإلحاد في آيات الله: أن يوضع الكلام على غير موضعه (٤)، قال السيوطي–بعد أن ذكر تفسير ابن عباس السابق-: ففيه الرد على من تعاطى تفسير بما لا يدل عليه جوهر اللفظ ،كما يفعله الباطنية ، والاتحادية ، والملاحدة، وغلاة الصوفية) (٥).

وأقول إن أصحاب القراءات الجديدة للنص القرآني يلحقون بهذه الطوائف، لأن تفسيرهم للقرآن تفسير بما لا يدل عليه جوهر اللفظ .

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يعدد أسباب الخطأ في التفسير من جهة الاستدلال :

---

(١) الشاطبي ،أبواسحاق (الموافقات ٢/ ٦٤)

(٢) الحربي ،حسين (قواعدالترجيح ٢/ ٧)

(٣) فصلت: ٤٠.

(٤) الطبري : (جامع البيان ٢٤ / ١٢٣)

(٥) السيوطي : (الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٢٩)

وأما النوع الثاني من مستندي الاختلاف ، وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل ،فهذا أكثر مايقع فيه الخطأ من جهتين –حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان.. "[1].

(١) ابن تيمية، (مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٥٥)

الأصل الثاني :كليات القرآن:

المقصود بها: ورود لفظ أو أسلوب في القرآن على معنى أو طريقة مطردة أو أغلبية [١] .

والفرق بين كليات الألفاظ وكليات الأساليب ،أن الألفاظ ما كان مدار الكليّة فيها على لفظ أو جملة أو تركيب معين ،سواء أفاد هذا معنى وتأويلا،أو طريقة ونهجا لما سارت عليه اللفظة أو الألفاظ في القرآن، واستخدمت فيه من مجال ،وسيقت له من مقام .

بينما الأساليب لاتُحدّ ولا تقيّد بلفظ خاص أو ألفاظ بعينها، بل هي تتجه إلى نهج القرآن وطريقته في نظمه ، أو عرضه لكثير من القضايا والموضوعات ،كموضوع القسم في القرآن ،والجمع بين الترغيب والترهيب ،وحكاية المحاورات والمجاوبات وغيرها [٢].

وللكليات صيغ أشهرها : "كل" ، و"حينما" و"أينما"، و"حيث ورد في القرآن "أو "حيث جاء في القرآن "، و"جميع ماورد في القرآن" ، و"عامة ماورد في القرآن "،و"عادة القرآن ".

والعلم بهذه الكليات سواء في الألفاظ أوالأساليب من الأصول الهامة جدا في فهم كتاب الله ، ولذا عني بها سلف الأمة من مفسريها وخاصة في الألفاظ .

ولذا حوت كتب التفاسير كما وفيرا من هذه الكليات ،وعلى رأس

---

(١) القرني ،بريك (كليات الألفاظ في التفسير ١/ ١١٨)

(٢) القرني ،بريك (كليات الألفاظ في التفسير ١ / ١١٨)

هؤلاء ابن عباس –وهو أكثرهم–،ومجاهد ،وقتادة ،والضحاك ،وعطاء ، وعكرمة ،وسعيد بن جبير

ومن أمثلة كليات الألفاظ قول ابن زيد :"والتزكّي في القرآن كله الإسلام "وقرأ قول الله : ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (1)، قال :من أسلم ،وقرأ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ (2)، قال: يسلم، وقرأ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ (3)، قال: يسلم "(4).

قال ابن عباس :كل "تسبيح "في القرآن :صلاة . . (5) .

ويقول مجاهد :"الخير " في القرآن كله المال (6)، وقال عكرمة :"الخير" حيث وقع في كتاب الله المال (7).

وهذا الأصل اعتمده السلف في ترجيح أقوالهم وتأييدها ،ومن ذلك أن ابن عباس –رضي الله عنهما– في نقاشه لنافع بن الأزرق في معنى كلمة "الورود" استدلّ على ما يذكره بالغالب في استعمال القرآن لهذه الكلمة ، فقد قال ابن عباس أن معنى الورود في قوله تعالى "وإن منكم إلا واردها": الدخول ،فقال نافع :لا، فقرأ ابن عباس ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن

(1) طه: ٧٦.

(2) عبس: ٣.

(3) عبس: ٧.

(4) الطبري ، أبوجعفر محمد بن جرير(جامع البيان ٢٩ / ٧٩)

(5) الطبري ، أبوجعفر محمد بن جرير(جامع البيان ١٨/ ١١٣)

(6) الطبري ، أبوجعفر محمد بن جرير(جامع البيان ٣/ ٣٩٣)

(7) الأندلسي ،ابن عطية (المحرر الوجيز (١٥ / ٥٥٠)

دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [1]، أورودٌ هو أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [2]، أورودٌ هو أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها ،فانظر هل نخرج منها أم لا؟[3].

---

(١) الأنبياء: ٩٨.

(٢) هود: ٩٨.

(٣) الطبري، محمد بن جرير (جامع البيان ١٥ / ٥٩١)

الأصل الثالث :دلالات الألفاظ .

من المهمات لكل مفسّر أن يحيط بدلالات الألفاظ من حيث العموم والخصوص ،والمطلق والمقيد ، والمنطوق والمفهوم ؛لأنها أدوات لفهم النص .

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي :"كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه الألفاظ مطابقة ، وما دخل في ضمنها ، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني وما تستدعيه من المعاني التي لم يعرج في اللفظ على ذكرها .."

ثم بيّن الطريق الموصل لهذا فقال: والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع :أن تفهم ما دلّ عليه اللفظ من المعاني ،فإذا فهمتها فهما جيدا، ففكّر في الأمور التي تتوقف عليها ولا تحصل بدونها ،وما يشترط لها .وكذلك فكّر فيما يترتب عليها ،وما يتفرع عنها ،وينبني عليها وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه حتى يصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة ،فان القرآن حقّ ،وما يتوقف على الحقّ حقّ ،وما يتفرع عن الحق حق ،ذلك كله حق ولابد [(١)].

وذلك أن اللفظ الذي نريد فهمه لايخلو من هذه الدلالات ،إما أن يكون اللفظ عاما أو خاصا، وأحيانا يكون اللفظ عاما ويراد به الخصوص، والعكس أيضا ،قد يكون اللفظ خاصا ويراد به العموم ، وهناك صيغ تفيد العموم ويراد بها العموم ،وألفاظ تفيد الخصوص ويراد بها الخصوص،

(١) السعدي ،عبدالرحمن (القواعد الحسان ص ٣١-٣٢)

وألفاظ تفيد العموم إلا أنه يراد بها الخصوص ،وألفاظ تفيد الخصوص إلا أنه يراد بها العموم ،والقرائن توضح وتزيل اللّبس

ومن هنا يتبين لنا أهمية معرفة هذا العلم لما له من أثر في فهم النص واستخراج الأحكام .

ومن أمثلة ذلك : عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[1]، فلفظ "المطلقات" هنا عامّ ،ولو فسرنا هذه الآية لوحدها فإنها تفيد أن عدة كل المطلقات ثلاثة قروء ، بينما هذا الحكم لايمكن إطلاقه هكذا على جميع المطلقات ؛ لأنه قد جاءت آية أخرى في سورة أخرى هي سورة الطلاق تخصّص هذا الحكم وهي قوله تعالى : ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[2].

وهاهو قتادة -كما أخرج عنه ذلك عبد بن حميد- يقف مع هذا اللفظ العام ويخرج بعض أفراده منه، ويسمي ذلك نسخا -على اصطلاح السلف في إطلاق النسخ على التخصيص - فيقول في تفسير هذه الآية :فجعل عدة الطلاق ثلاث حيض ،ثم إنه نسخ منها المطلقة التي طلقت ،ولم يدخل بها زوجها ،فقال في سورة "الأحزاب" ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾[3]، فهذه تُزوّج إن شاءت من يومها ،وقد نسخ من الثلاثة فقال:

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) الطلاق: ٤.

(٣) الأحزاب: ٤٩.

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾ [1]، فهـذه العجـوز التـي لاتحيض ، والتي لم تحض ،فعدتهن ثلاثة أشهر ،وليس الحيض من أمرها في شيء، ونسخ من الثلاثة قـروء :الحامـل ، فقـال: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ ﴾[2] ، فهذه ليست مـن القـروء في شيء، إنـما أجلهـا أن تـضع حملها " . [3].

وكذا الأمر بالنسبة لدلالـة أخـرى مـن دلالات اللفـظ، وهـو المطلـق والمقيد ، فقد جاءت بعض الأحكام في الآيات مطلقة غير مقيّدة بوصف أو شرط ، وجاءت أحكام أخر مقيّدة بأوصاف أو شروط،

وعند تناول المفسّر للآية لابد له أن ينظر إلى ذلك .

فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾[4]، فان هذه الآية مطلقة قيدتها قوله تعالى : ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾ [5]، فان هذه الآية قد قيدت توزيع الميراث بأنه يكون بعد إخراج الوصية والدَّين.

وكذا الأمر بالنسبة لدلالة أخرى من دلالات الألفاظ ،وهي: المنطوق

(١) الطلاق: ٤.

(٢) الطلاق: ٤.

(٣) السيوطي ، عبدالرحمن (الدر المنثور:٢ / ٦٥٠)

(٤) النساء: ١١.

(٥) النساء: ١١.

والمفهوم، لأن دلالة الألفاظ على المعاني ، إما أن تستفاد من جهة النطق والتصريح ،أو من جهة التعريض والتلويح ، ولاتخلو دلالة اللفظ إما أن تكون دلالة منطوق صريح كدلالة النص أو غير صريح كدلالة الاقتضاء ، أودلالة الإشارة ، أو دلالة مفهوم موافقة أو مخالفة . **وكل ذلك يحتاج إلى استقراء لتفسير السلف للخروج بأمثلته وتطبيقاته .**

ومن أمثلة هذه الدلالات أكتفي بمثال على أثر دلالة مفهوم في معنى آية .

هذا المثال لمفهوم هو : مفهوم شرط ،اعتمد عليه الصحابة في استخراج حكم من الأحكام

وذلك في قوله تعالى(إن ترك خيرا الوصية) (سورة البقرة: ١٨٠) ، هو أن من لم يترك مالاً كثيراً فلا وصية عليه. وهذا مفهوم شرط ،أي: إن ترك خيراً فليوص.

أخرج سعيد بن منصور عن عائشة -رضي الله عنها - قالت: "قال لها رجل: إني أريد أن أوصي؟ قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: قال الله ﷻ: (إن ترك خيرا)، وإن هذا الشيء يسير، فاتركه لعيالك فهو أفضل"[١].

وأخرج ابن جرير -رحمه الله- عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه - أنه دخل على مولى لهم في الموت، وله سبعمائة درهم أو ستمائة درهم،

(١) سنن سعيد بن منصور، تفسير سورة البقرة (٢/ ٦٥٦) برقم (٢٤٨).

فقال:" ألا أوصي؟ فقال: لا، إنما قال الله: (إن ترك خيرا)، وليس لك كثير مال[1].

(١) تفسير ابن جرير (٣/ ١٣٦).

المبحث الثالث : الأساس العقدي والإيماني ،ويدور حول المنطلقات الفكرية للمفسر، أو الخلفية الفكرية للمفسر وأثرها في التفسير.

وهو يعتمد على أصلين هامّين هما:

الأصل الأول: صحة العقيدة ونقاؤها ،والخلوص من الأهواء.

هذا الأصل من الأصول العاصمة - بإذن الله – من الانحراف في تفسير آيات القرآن ،ومن التعسّف المؤدي إلى ليّ أعناق النصّ القرآني لموافقة منهج أو فكر أو عقيدة المفسر المنحرفة.

وذلكم أن القرآن حمّال ذو وجوه ، ويصطبغ التفسير بالصبغة الفكرية أو العقدية التي يعتقدها المفسر ،وينحرف في تأويله للقرآن حتى يؤيد مايعتقده؛ ولذا وجدت تفاسير كثيرة منحرفة كتفاسير الشيعة،والباطنية، والخوارج ،والمعتزلة،والصوفية ...

سببها الانحراف العقدي ،والأهواء التي تحملهم على تحريف الكلم عن مواضعه،لتأييد باطلهم ،أو للطّعن في القرآن من حيث صرفه إلى مذاهبهم الفاسدة.

وهانحن اليوم نشهد طوائف جديدة منحرفة في تفسير كلام الله ممن يسمون بأصحاب القراءات الحديثة ، فكثير من هؤلاء لهم أجندات عقدية منحرفة تعتمد على مدارس عقلية ،ومذاهب حداثية غربية في قراءة النص، مما يحملهم على تحريف القرآن بتشويه تفسيره ،ويحمّلون النص القرآني مالايحتمل من الدلالات والمعاني ،ويبطلون أحكامه القطعية كأحكام

الحدود الشرعية بتأويلات فاسدة نابعة من أهوائهم المنحرفة ،وأفكارهم الضالة.

وأما سلف هذه الأمة الذين يؤخذ عنهم التفسير فقد كان لصحة عقائدهم وخلوصهم من الأهواء والبدع المحدثة -التي نشأت بعدهم - الأثر الكبير في سداد أقوالهم في تفسير كلام على الوجه الصحيح والمعتبر

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :"وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة ،وماروه من الحديث ، ووقفت من ذلك على ماشاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير ،فلم أجد من الصحابة أنه تأوّل شيئا من آيات الصفات أوأحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف عنهم من تقرير ذلك وتثبيته ،وبيان أن ذلك من صفات الله مايخالف كلام المتأولين مالايحصيه إلا الله ، وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين عنهم شئ كثير " [1].

(١) ابن تيمية،أحمد بن عبدالحليم ،(مجموع الفتاوى ٦/ ٣٩٤) .

الأصل الثاني :تقديس كلام الله وتعظيمه.

من هدي سلف الأمة ومفسريها تقديس كلام الله وتعظيمه، وقد أدّى ذلك إلى تحرّجهم في التفسير، وتعظيم أمر التفسير ،حتى إن بعضهم كان يستخير عند الإقدام عليه ،بل أدى التهيب ببعضهم إلى أن امتنع منه .

وأمر تقديس السلف لتفسير كلام الله وتعظيمه من الأمور المشتهرة .

يقول مسروق :"اتقوا التفسير ، فإنما هو الرواية عن الله " [١] ويقول الشعبي :"إن الذي يفسر القرآن إنما يرويه عن ربه "[٢].

وقد كانوا يعظّمون القول في التفسير أكثر من غيره من بقية العلوم ؛لارتباطه بكلام الله –عز وجلّ– يقول يزيد بن أبي يزيد : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام ،وكان أعلم الناس ،فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع "[٣].

هـذا التهيب والتعظيم لكتاب الله مؤثر ولاشك في منهجية التفسير،وفيما سيقدّمه المفسر من قول في بيان معنى الآية؛

ولذا جاءت جرأة بعض أصحاب القراءات الجديدة للنص القرآني من قلّة تعظيمهم لكتاب الله، وتجرئهم على كلام الله في أقوالهم الباطلة

---

(١) ابن سلام،أبوعبيد القاسم ،(١٤١٥هـ،فضائل القرآن (٢/ ٢١٣) نشروزراة الاوقاف بالمغرب، ت: أحمدالخياطي.

(٢) الاصبهاني ،،أبونعيم ،١٣٩٩هـ،(حلية الأولياء ٤ / ٣٢١) .

(٣) الطبري ،أبوجعفر،١٤٢٢هـ(جامع البيان ١ / ٨٠-٨١)

والمحرفة لكلام الله – عياذا بالله من الضلال – بل وتعاملهم معه كأيّ نصّ، ولاشك أن هذا من أخطر ماجعلهم يقولون في القرآن هذه الضلالات ،بتحريفهم للكلم عن مواضعه.

المبحث الرابع : الأصول المنهجية في التفسير

هذا الأصل يعالج طريقة التفسير والمنهجية العلمية في التفسير،وهو يرتكز على عدة أصول هامة أبرزها:

الأصل الأول :الالتزام بالحقيقة في التفسير.

الأصل في الكلام أن يحمل على الحقيقة ؛لأنها هي المتبادرة إلى الذهن ، ولأنها مراد المتكلم بداية ، وأيّ خروج عن ذلك فإنه يعدّ استثناء، ولابد له من قرائن.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :" ومن قسّم الكلام إلى حقيقة ومجاز متفقون على أن الأصل في الكلام هو الحقيقة"(١).

والقرآن الكريم كلام رب العالمين يجب حمله على الحقيقة ، ولايجوز العدول عنها إلى المجاز إلا لمانع يمنع من ذلك.

يقول الإمام ابن عبد البر:" وحمل كلام الله –تعالى –وكلام نبيه على الحقيقة أولى بذوي الدين والحق ،لأنه يقص الحق ،وقوله الحق –تبارك وتعالى علوا كبيرا– "(٢).

ومن أمثلة ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾(٣)، فقد ذكر الطبري عدة أقوال في معنى "الهبوط" ومنها :أن هبوط

(١) ابن تيمية ،احمد بن عبدالحليم (مجموع الفتاوى ٢٠/ ٤٧٣).

(٢) ابن عبدالبر (التمهيد ٥ / ١٦).

(٣) البقرة: ٧٤.

ماهبط منها من خشية الله: تفيؤ ظلاله.

وقال آخرون :ذلك الجبل الذي صار دكّا إذ تجلّى له ربّه.

وقال بعضهم :ذلك كان منه ويكون بأن الله جل ذكره أعطى بعض الحجارة المعرفة والفهم ،فعقل طاعة الله فأطاعه ،كالذي روي عن الجذع الذي كان يستند إليه رسول إذا خطب ،فلما تحوّل عنه حنّ ، وكالذي روي عن النبي أنه قال :" إن حجرا كان يسلم عليّ في الجاهلية ،إني لأعرفه الآن "

ثم قال : وهذه الأقوال وإن كانت غير بعيدات المعنى مما تحتمله الآية من التأويل ،فان تأويل أهل التأويل من علماء سلف الأمة بخلافها ، فلذلك لم نستجز صرف تأويل الآية إلى معنى منها "(1) .

ومثال تأويل السلف لهذه الآية على الحقيقة ماأخرجه الطبري بسنده عن مجاهد أنه قال :كل حجر يتفجر منه الماء ،أو يشقق عن ماء ،أو يتردّى من رأس جبل ،فهو من خشية الله عزّ وجل ،نزل بذلك القرآن " وروى عن ابن جريج مثله(2)

(١) الطبري ، أبوجعفر (جامع البيان ٢ / ١٣٧)

(٢) الطبري ، أبوجعفر (جامع البيان ٢ / ١٣٦)

الأصل الثاني :الالتزام بظاهر القرآن.

والمراد بظاهر القرآن:إجراء نصوص القرآن على ظاهرها من المعاني.

قال أبو الحسن الأشعري :"القرآن على ظاهره ،وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا لحجة ،وإلا فهو على ظاهره "(١).

وقال أبو المظفر السمعاني: "وقد كانت الصحابة يتعلّقون في تفاصيل الشرع بظواهر الكتاب والسنة"(٢).

ويؤكد ذلك الشوكاني فقال :"واعلم أن الظاهر دليل شرعي يجب إتباعه ،والعمل به بدليل إجماع الصحابة على العمل بظواهر الألفاظ "(٣) .ويقرر الشنقيطي ذلك :" والتحقيق الذي لاشك فيه ،وهوالذي كان عليه أصحاب رسول الله وعامة علماء المسلمين أنه لايجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسول الله في حال من الأحوال بوجه من الوجوه، حتى يقوم دليل صحيح شرعي صارف عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح"(٤).

ومن أمثلة ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾(٥).

فقد وردت أقوال عن السلف تفسر الآية على ظاهرها يقول عكرمة:

---

(١) الأشعري ، أبوالحسن(الابانة ص ٦٨).

(٢) السمعاني ، منصور بن محمد (قواطع الأدلة ٣ / ٥٤) .

(٣) الشوكاني ،محمد بن علي (ارشاد الفحول ص ٢٩٩) .

(٤) الشنقيطي ،محمدالامين (أضواء البيان ٧ / ٤٣٨) .

(٥) الإسراء: ٤٤.

"لايعيبنّ أحدكم دابته ولاثوبه ،فان كل شيء يسبح بحمده ".

ويقول أيضا :"الشجرة تسبّح ،والاسطوانة تسبّح" (١).

وقد وردت بعض الأقوال في تفسير هذه الآية على غير ظاهرها مثل: إن كل شئ فيه روح يسبح ، ومالاروح فيه فلا يسبح .

وقيل : إن هذا التسبيح تجوّز ،ومعناه إن كل شئ تبدو فيه صنعة الصانع الدالة عليه فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المعتبر (٢).

وهذه الأقوال خالفت ظاهر الآية ،فظاهر الآية يثبت التسبيح حقيقة لكل المخلوقات ناطقة أو غيرناطقة من حيوانات أو جمادات .

يقول أبوحيان :"ونسبة التسبيح للسموات والأرض ومن فيهن من ملك وإنس وجنّ ،حمله بعضهم على النطق بالتسبيح حقيقة ،وأن مالاحياة فيه ولانمو يحدث الله له نطقا وهذا هو ظاهر اللفظ "(٣).

وكذا قال الشنقيطي :" التحقيق أن تسبيح الجبال والطير مع داود تسبيح حقيقي ،لأن الله –جل وعلا- يجعل لها إدراكات تسبّح بها "(٤).

---

(١) الطبري (جامع البيان ١٤/ ٦٠٥) والسيوطي ،الدر المنثور (٩/ ٣٥٥)

(٢) ينظر هذه الأقوال في زاد المسير (٥ / ٣٩) والمحرر الوجيز (١٠ / ٣٠٠) والبحر المحيط (٧/ ٥٤)

(٣) الاندلسي ،أبوحيان (البحر المحيط ٧/ ٥٤)

(٤) الشنقيطي ،محمدالامين (أضواء البيان ٤ / ٦٧٢)

الأصل الثالث :العناية بالسياق في تفسير الآية .

هذا الأصل من الأصول المنهجية المهمة في تفسير القرآن ؛ لأن سياق الآية، وإدخال الكلام في معاني ماقبله ومابعده مؤثر كبير في فهم الآية وإزالة اللبس عنها ،وتفصيل المجمل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :" فان الدلالة في كل موضع بحسب سياقه، وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية "[١].

ويشرح ابن القيم أثر السياق في فهم الآية :"السياق يرشد إلى تبيين المجمل ،وتعيين المحتمل ،والقطع بعدم احتمال غير المراد ،وتخصيص العام ،وتقييد المطلق ،وتنوع الدلالة .وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ،فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته .فانظر إلى قوله تعالى : ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [٢]، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير"[٣] .

وحتى فهم المفردة اللغوية يلزم فهمها في ضوء السياق :

يقول الزركشي :"وطريق التوصل إلى فهمه :النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق ،وهذا يعتني به الراغب كثيرا في كتاب "المفردات" فيذكر قيدا زائدا على أهل اللغة في

(١) ابن تيمية، احمدعبدالحليم (مجموع الفتاوى ٦/ ١٤)

(٢) الدخان: ٤٩.

(٣) الجوزية ، ابن قيم (بدائع الفوائد ٤/ ٩)

تفسير مدلول اللفظ ،لأنه اقتنصه من السياق "[1].

ويؤكد تميّز الراغب في مفرداته بسبب استعانته بالسياق في فهم الغريب، فيقول :"ومن أحسنها كتاب المفردات للراغب ،وهو يتصيد من السياق ؛لان مدلولات الألفاظ خاصة "[2].

ومن أمثلة ذلك : عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [3]،" قال الطبري : اختلف أهل التأويل في المعنيّ بالنعمة التي أخبر الله -تعالى ذكره -عن هؤلاء المشركين أنهم ينكرونها ،مع معرفتهم بها فقال بعضهم :هو النبي عرفوا نبوته ،ثم جحدوها وكذبوه.

وقال آخرون :بل معنى ذلك: أنهم يعرفون أن ماعدّد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النّعم من عندالله ،وأن الله هو المنعم بذلك عليهم، ولكنهم ينكرون ذلك ،فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم .

وقال آخرون :إنكارهم إياها أن يقول الرجل :لولا فلان ماكان كذا وكذا ،ولولا فلان ماأصبت كذا وكذا ،وقال آخرون : معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم :من رزقكم ؟أقروا بأن الله هو الذي رزقهم ،ثم ينكرون ذلك بقولهم :رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ،وأشبهها بتأويل الآية قول من قال:

---

(١) الزركشي، بدرالدين (البرهان ٢ / ١٧٢)

(٢) الزركشي، بدرالدين (البرهان ١ / ٢٩١)

(٣) النحل: ٨٣.

عنى بالنعمة التي ذكرها الله في قوله ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ النعمة عليهم بإرسال محمد إليهم داعيا إلى مابعثه بدعائهم إليه ،وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاهما خبر عن رسول وعما بعث به ،فأولى مابينهما أن يكون في معنى ماقبله ومابعده ،إذ لم يكن معنى يدل على انصرافه عما قبله وعما بعده ،فالذي قبل هذه الآية قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (١)، ومابعده ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ (٢)، وهو رسولها فإذا كان ذلك كذلك ، فمعنى الآية : يعرف هؤلاء المشركون بالله نعمة الله عليهم يامحمد بك ،ثم ينكرونك ويجحدون نبوّتك ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يقول: وأكثر قومك الجاحدون نبوتك ،لاالمقرون بها " (٣).

(١) النحل: ٨٢-٨٣.

(٢) النحل: ٨٤.

(٣) الطبري، ابوجعفر (جامع البيان ١٤/ ١٥٧-١٥٨)

الخاتمة

الحمد لله ،والصلاة والسلام على رسول الله ،وبعد،

فبعد مدارسة هذا الموضوع- الأصول الإيمانية والعلمية لفهم كلام الله -يمكن الخروج بعدة نتائج أبرزها:

١- أهمية دراسة تفسير السلف واستقرائه للخروج بأهم الأصول العلمية والإيمانية لتفسير كلام الله.

٢- من أهم مايميز تفسير السلف السلامة العلمية والمنهجية التي بنوا عليها تفاسيرهم.

٣- هناك أصول علمية منهجية لايمكن تفسير القرآن تفسيرا سليما بدونها، من أهمها:

أولا: معرفة لغة القرآن ،وأساليبه وعادته في الخطاب .

ثانيا:ضرورة إدراك ظروف نزول القرآن مكانا وزمانا.

٤- ضرورة إتباع منهجية علمية في التفسير تعتمد على تفسير القرآن بالظاهر،واعتماد الحقيقة في تفسير الألفاظ .

٥- أهمية مراعاة السياق في التفسير .فهو معين كبير وهام في التفسير ، ومرجح قوي عند تعدد الأقوال.

٦- الضلال الموجود في تفاسير أصحاب الاتجاهات الحديثة المنحرفة كأصحاب القراءات الحديثة للنص القرآني، من أهم أسبابه: تفريطهم أو تجاهلهم لتلك الأصول في التعامل مع كتاب الله ،إضافة إلى جرأتهم على التقوّل في تفسير القرآن.

فهرس أهم المراجع

- الأشعري، أبوالحسن علي بن إسماعيل ، ١٤١٨هـ ، الإبانة عن أصول الديانة بيروت ، دارالكتب ،ط:١.
- الأصبهاني، احمد بن عبدالله ،١٣٩٩هـ، حلية الأولياء ،مصر،مطبعة السعادة.
- الأصفهاني، الراغب ، ١٤١٢هـ،المفردات، دمشق ،دار القلم ، ط:١ ، تحقيق :صفوان داوودي.
- الأندلسي، محمد بن عطية ، المحرر الوجيز ، وزارة الشئون الإسلامية بالمغرب، ط:١.
- الأندلسي ، محمدبن يوسف أبوحيان ،١٤١٢هـ، البحر المحيط، بيروت، دار الفكر، ط:١.
- ابن تيمية ، أحمدبن عبدالحليم ،مجموع الفتاوى، الطبعة المصرية.جمع عبدالرحمن بن قاسم.
- ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي ، ١٤٠٤هـ، زاد المسير ، بيروت، ط:المكتب الإسلامي ،ط:٣
- ابن الجوزية ،ابن قيم ،بدائع الفوائد ط : دار الكتاب العربي ، بيروت.
- الحربي، حسين بن علي ،١٤٢٩هـ،قواعد الترجيح عند المفسرين، الرياض، دار القاسم، ط:٢.
- الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن ،القاهرة ،ط:دار التراث، ت :محمدأبوالفضل ابراهيم

- السمعاني ، منصور بن محمد ، ١٤١٩هـ، قواطع الأدلة في أصول الفقه، الرياض، مكتبة التوبة،ط:١، تحقيق:د/ عبدالله بن حافظ الحكمي.
- السيوطي،جلال الدين،١٤٠٥هـ، الإكليل في استنباط آيات التنزيل ، بيروت، دار الكتب العلمية،ط:٢،تحقيق سيف الدين الكاتب.
- السيوطي ،عبدالرحمن بن أبي بكر، ١٤٠٧هـ ،الإتقان في علوم القرآن، الرياض، ط:الأولى، مكتبة المعارف.
- ابن سلام،أبوعبيدالقاسم، ١٤١٥هـ ،فضائل القرآن ،المغرب ، نشروزارة الأوقاف ،تحقيق:أحمدالخياطي.
- الشاطبي ،أبو إسحاق ،الموافقات في أصول الشريعة،بيروت ،دار المعرفة،تعليق:عبدالله دراز.
- الشنقيطي ، محمد الأمين ، بدون تاريخ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، بيروت، عالم الكتب
- الشوكاني ، محمد بن علي ،١٤١٢هـ، إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، بيروت، مؤسسة الثقافة، ط:١،تحقيق: محمد البدري
- الطبري ،محمد بن جرير،١٤٢٢هـ،جامع البيان عن تأويل آي القرآن، القاهرة ،دار هجر،ط ١،تحقيق د/ عبدالله التركي
- القرطبي ،محمد بن أحمد،١٩٦٥ م، الجامع لأحكام القرآن،بيروت، دار إحياء التراث.
- القرني ، بريك بن سعد، ١٣٢٦هـ ، كليات الألفاظ في التفسير، الرياض، ط: ١.

- المثنى، أبوعبيدة معمر،١٤٠١ هـ ،مجاز القرآن ، دمشق ،ط:٢ ، مؤسسة الرسالة.
- النحـاس،أبو جعفـر ،١٤١٢ه ، الناسـخ والمنـسوخ ،دمـشق ،مؤسـسة الرسالة ،ط٣،تحقيق : سليمان اللاحم.
- الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد، ١٣٩٨ هـ، أسباب النزول، بيروت، دار الكتب العلمية.